

الحذاء الضيق

قصة بقلم من السراجي

وفوق الاكياس تربع أبي كما عرفته قبل وفاته وأنا في الرابعة : حمالا له (الضهارية) نفسها و (الشنكل) نفسه ، والوجه المعفر بالدقيق نفسه ... ترى من بعثه من قبره بعد ربع قرن ولماذا ؟ .. هل مل ضجعته المريحة فهب للعمل ؟ .. ما الذي جمعني به هذه اللحظة ؟ .. حسن ، انا عرفته ، لكنه لن يعرفني ، فلاخل له الطريق لينهب السى القرن فيقابل أباه هناك ... لقد طال فراقهما كما طال لقاؤهما ... أخبرني أمي ان جدي ركب قطار الابدية من تلك الحفرة أمام (بيت النار) في قرن الخبز ... أجبره الجوع على العمل حتى آخر لحظة ، ولما سقط وهو يعمل ، حملة أهل المروءة الى البيت على سلم خشبي متحرك بعد أن ستروه عن أعين ذوي الاعصاب المرهفة من المارة بأكياس الدقيق الفارغة ... أما نفقات انتقاله الى المحطة الاخيرة فقد تسرع بها أهل اليسار ... ترى هل هو اليوم على موعد للقاء مع ابنه ؟ .. هل عادا لبرحلا ؟ .. أفي كل يوم لهما رحلة وفي كل يوم لهما عودة ؟ .. وان اختلفت وسائل النقل أو مصادر النفقات ...

ارتفع صوت المؤذن من مسجد مجاور فعدت الى الرصيف ... ليبتني أدخل المسجد فارتاح ولو هنيهة من حذائي وخنجره ... وبحركة لا شعورية رفعت يدي اليسرى لاعرف الوقت ، لكني أعدتها مسرعا .. كنت يوما ما أحمل ساعة يد ، وكانت تؤدي مهمتها بامانة فتجتر لحظات حياتي ثائية ثانية ، ولما ملت عملها اللامعدي ، وقفت فجأة ، وفشلت كل حيلة لي في استدراجها الى العمل من جديد ، فاهلنها كما أهملتني ، وفتحت لي باب ففصها فانطلقت منه ...

وعاد صوت المؤذن ... وعدت الى الرابعة من عمري ... ورايت أمامي تاجر الحبوب بطربوشه الاحمر النظيف المكوي ، وقمبازه الجديد الفاخر ، وحزامه الحريري الثمين ، ووجهه اللامع وشارببيه المفتولين ، رأيت وقد قبض بجمعه على لمة فلاح قمي ، وراح يوسعه صغفا وشمثما لانه تأخر في سداد دينه ، ودفع فوائده ... ثم يتركه ليهرع الى المسجد ، قبل أن تفوته الصلاة ... ويقف الفلاح والتاجر في صف واحد للصلاة ، لا فرق بينهما غير احمرار ففا الفسلاح ويد التاجر ...

ويعيدني الى الرصيف زعييق بوق سيارة ابن التاجر ... يا للمخت ... وبصبح ابن الفلاح فسي وجي (بوي أستاذ) ... وانظر الى عينيه الفائرتين ، وشفثيه الهزيلتين ، وكتفه المشدود بحمالة صندوق (البويا) الى الارض حيث الاقدام والاحذية ... يا صغييري حذائي ضيق ، وخنجره مفروس في قدمي ... وجيبي فارغ ... ان ابدل حذائي ... ولن أمسحه ... وشمخ ابن التاجر بأنفسه ، وصور خده وهو يضع رجله فوق صندوق ابن الفلاح ، وانكب هذا على الحذاء يمسحه بحركات سريعة ، كما تمسح الذبابة خرطومها ... وصلت المصرف - على الرغم من حذائي - قال المحاسب وهو يستقبلني ببشاشة :

- أهلا وسهلا ، ما شاء الله ، ما هذه الطلعة وهذه الاناقة ؟ .. شركته وانسمت ... ورايت في المرأة اناء لامعا براقا ، وقصرا مطلي الجدران مزخرفها ، مذهب الابواب ، يكسو الرخام أرضه ... نظرت داخل الاناء فاذا الماء الآسن يملؤه ، ودخلت القصر فاذا ساكنه شيخ هرم ، يسيل أنفه وتهتز يداه ، عاجز مسن ، يزيد فمه وتراقص شفثاه ... وعدت مهرولا الى واقعي ...

أم المحاسب العدد : مائتين وثمانين وعشرين ليرة ، وضعتها

لسبب ما تأخر صرف رابحي هذا الشهر ، كنت أذرع غرفـة مكتبي متجولا فيها دون هدف ، أضرب كفا بكف ، وأخاطب في الوهم أشباحا وأخيلة تشب أمام ناظري وتختفي ... للالعاب المر يهلا فمسي ويجرح حنجرتي كلما ازدردته ... أسناني تصطك وأنا أمضغ الزجاج المطحون ... وأجد نفسي في أرجوحة تهوي ثم تهوي الى أن تقذف بي في جوف عملاق أسود فاغر الفم ، فتشدد عضلات معدته على أضلاعي حتى أسمع صوت نكسرها ، يبدأ خافتا ، ثم يعلو ويعلو ليختلط بذلك الشلال الهادر من الاصوات الذي يتدفق من النافذة ويطنيني في عيابه مع نعيق الثربان ، وعواء الذئب ، وعويل الجوم ... وأقبض على رأسي بيدي كنتيهما قبل ان يفجره الضجيج ، وينشر شظاياه على جدران الغرفة فتأوتها ببقع فيها من الالوان كلها الا لون الدم .

كيف لي ان أغادر هذا الكهف الذي نسج العنكبوت وعششت الهوام في زواياه ؟ .. الشمس تزور عنه ، ووحوش القابة ترتع في أرجائه ، ويعبق جوه بروائح الجثث المتعفنة يسيل صديدها على أرضه وتعموم فيه الديدان ... قد حول قدمي فانكب على وجهي أرضع مما ترضع تلك الديدان ، وأصبح فيما أصبح .. ان أمواج الطوفان آمن مستقرا من سفينة نوح هذه التي حوت أزواجا متعددة من كل نوع ، لكنها خلت من الانسان الحق ، ومضت يدير دفتها ابليس في ثياب نبي وطلعته ، بينا أنا مربوط الى صاريها بجملته الشياطين واحكمت عقده الزبانية ...

ناولني الموزع صكا برائبي وقال لي بينا أنا أوقع اشـمسار التسليم :

- (البيك) المدير يرغب في أن تقابله عندما تعود من المصرف لامر هام .
- حسن .

وانجهت السسى المصرف ... أمر هام ؟ .. (بيك) .. وأي (بيك) ؟ .. علمت انه أخفق في دراسته هنا فأرسله والده (البيك الكبير) الى أورزيا ليعود منها (بيكا) بعد سنوات قالوا انه قضاه في الدراسة ، ثم ليصبح بعدها بفترة وجيزة - وبفضل نشاطه طبعاً - مديرا للشركة التي يملك أبوه معظم أسهمها ...

لن تنقلني السيارة العامة لانني لا أملك القروش الخمسة .. سوف أمشي ... ستحملني قدمي المصورتان في حذائي الضيق الذي يكبل أصابعهما ويفرس بينهما خنجره ... لكنني لن أبدله ، لقد ولي عهد الاحذية الواسعة ... كنت يومها طفلا ، وكنت مجبرا على انتعال أحذية أخي الاكبر بعد أن يهملها ، غير انها تظل واسعة على الرغم من الورق القوي الذي كنت أحشوها به ... وغسارت رصيف الشارع الى الصين ... كيف تحملت حواء هنا أربطة الاقدام جيلا بعد جيل ؟ .. أهو سر التين الاصفر والنيران التي ينفثها من فيه ؟ .. أم هو السور الكبير ومن خلفه فارس الساموراي الياباني يزهو بسميفه العريض وقناعه المصنوع بيد جنية القابة من خـزيران المستنقع ؟ .. وأقبلت فتيات الجيشا نحوي يضربن الصنج ، وترنفع أصواتهن بالفناء والعيول المخلوق .. ثم تختفي وجوههن المظلمة بالمسحوق الابيض فلا أرى الا الافواه المفتوحة تتجمع في فم واحد تتلوى اللهاة في مؤخرته كافي الكوبرا اذ ترقص على أنات زمسار فقير من الهند ...

أعادني الى الرصيف بوق سيارة تحمل الدقيق الى القرن ...

وخرجت الى الطريق ... وفقت أمام واجهة حانوت بائع الاحذية، ورحت أفراً الأسعار المعلقة : أربعون ليرة ... ثمان وثلاثون ... سبع وعشرون ... لا شك في انها أحذية مريحة وأن ظهرت وكأنها ضيقة ، لكنها لن تكون كحذائي ذي الليرات البماني ... وخرج من الحانوت شاب يتأبط علبة من الورق المقوى فيها حذاء جديد ، وأمامه تمايلت صبية مكتملة الأنونة ، ثم دفعها برفق الى سيارته وانطلق بها بعد أن أفلق الباب على رنين ضحكهما ... وصرخت في وجه المارد ذي الهراوة انه ابن التاجر ، ترى هل شاهدت أباه وهو يسرق الفلاح ؟.. كلا فلهيب عينيك يخبو امام لهيب السرقات الكبيرة ...

بضائل المارد وامنته أشعة الشمس الالهية ... وعدت الى حانوت الحذاء ففرقت صاحبه لتوي ... انه الدكتور مانيت (1) ... غزت له بعيني وفلت : دكتور مانيت ، هنيئا لك ... لقد أتاح لك سجنك الطويل في الباستيل فرصة تعلم صناعة الاحذية ... لا شك انك تصنع لنفسك أحذية أنيقة ومريحة نسيك الطب وصنائه ... انك كريم يا سيدي ، وأنا أشكو ضيق حذائي ، سأبدله بأحد الاحذية التي تعرضها في واجهة محلك ... لن يفصل الزجاج بيني وبينها ... سأحطه ... ومع صوت نكسر الزجاج وصياح الدكتور مانيت ، جذبني زوربا (2) بقوة من ذراعي وهو يفيل شاربيه الكثيفين ... وصحت به وأنا أكاد أنفجر من الضحك لمنظره في الزي الرسمي : زوربا ، متى أصبحت شرطيا ؟.. فضفظ على ذراعي بشدة وقال : هل ضفت ذراعا بالحياة ، أم انها ضافت بك ؟.. لا نلق بالاحذائك الضيق ... اخلعه ... ارم به وسط الشارع ... لقد انهار منجم اللينيت فوق رأسي فأصبحت شرطيا ، ولكن لا بأس علينا ... يعال شاركنسي الرقص ... سأزف على (السانوري) ... لن نأبه للمسارة او للولاد في الشارع ...

نظرت اليه والغبار الاسود يكسو وجهه ... لم أجد بدا من سماع نسيخته ... رميت حذائي الضيق الى منتصف الشارع ... ورحت أرقص حافي القدمين على ايقاع السانوري ... نبخرت كل آلامي ... والتف حولي الاولاد يتدافعون بعضهم يصفق ، وبعضهم يصيح ، وجميعهم يرشقونني بقشور البرتقال الذهبية .. أما زوربا فإنه تخلى عن ذراعي وضحك ملء شديفه مبتعدا يراوح يديه ، ويهز رأسه ...

حسن الشرجي

(1) الدكتور مانيت : احدي الشخصيات الرئيسية في رواية لبارلز ديكر المنهورة « قصة مديسين » .
(2) بطل رواية زوربا للكاتب اليوناني نيكوس كازانزاكي .

في جيبي ومضيت . أنافة ... أبة أنافة ؟.. ألم يسمع ابن قديمي في حذائها الضيق ؟.. ايه .. فال الشيخ وهو يعظ : « أقل الناس عذابا يوم القيامة ، رجل يوضع في أخمص قدمه جمرة من نار ، يقلي منها دماغه ، ما يرى أحدا أشد عذابا منه » ... وسرت النار مسن قديمي الى سماقي فأحشائي ... وامتدت حتسى شعرت بالقلبان في دماغي .. وانصب أمامي مارد يخرج اللهب من فمه وعينيه ، ويحمل في يده هراوة .. رحماك يا سيدي ، لا ندس على قديمي فهي تؤلني وحذائي ضيق .. أجل لقد سرفت .. سرفت نصف ليرة ، لكني كنت طفلا يعتقد ان كل ما في الكون ملك له ... أرجوك يا سيدي ، ان جسدي لا يحتمل وقع هراوتك ... لقد سرفت لاسأجر دراجة في ذلك العيد ... نزوة طفل يا سيدي ، وهل يؤخذ الاطفال على نزواتهم ؟.. أرجوك ، نخ أنفاسك عني ، وارفع قدمك عن رجالي .. وقبل أن يزجر امتصته أشعة الشمس الالهية ... وعلى الخنجر المقروس في قديمي ، حملت دماغي المنصهر ووضعته تحت أقرب صنوبر للماء ... وبصاعد البخار ، وانفقدت حلقاه أرفاما ... مائة ليرة أجرة البيت ، قد يحضر المالك بسيارته الفخمة لينناولها ، وقد أحملها اليه منتعلا حذائي الضيق ... خمس وسبعون ليرة لشؤون البيت والمعيشة ... خمس وعشرون ليرة ادفعها للخياط من ثمن الإنافة التي يحسدني عليها الحاسب ... ونظائر الليرات مع الارقام ، ويبقى حذائي ، أه من حذائي ، انه ضيق لكني لن أبدله ...

- أخبرني الموزع انك تطلبني يا سيدي .
- نعم ، أهلا وسهلا ، نفضل اجلس .
- شكرا ..

- لن أطيل الكلام على نشاطك واندفاعك واخلصك في عملك ، لكنها ظروف الشركة وندهور مواردها ... لقد اجتمع مجلس الإدارة وفرر نسيج عدد من الموظفين ... ويؤسفني جدا أن تكون بينهم ... سنصرف لك ما نستحقه كاملا مع راتب شهر انذارا بالنسج ، لقد استدعيتك خصيصا من بين جميع المرشحين لاقول لك اني على استعداد لبذل جهدي ونفوذتي في مساعدتك للحصول على عمل اخر ، لكمل ضيق مذ ... وعسى ان بكر ... و ... و ... لم أعد اسمع : المرشحين ... المرشحين ... والمرشحين ... والتفت الى المارد ذي الهراوة وصحست في وجهه : لم أكن أنا السارق الوحيد في هذه الدنيا ... ما هي نصف الليرة ؟.. لماذا أهويت بهراوتك على رأسي أنا من بين الناس ؟.. لماذا جئت ننتقم مني الان بعد أن رافقتني بتهديدك هذه السنين كلها ؟.. ليتني ركب القطار مع جسدي ... لقد أضعت الفرصة ولم أفتح ذراعي لاضم الى صدري أبي فوق سيارة الدقيق أو تحتها ، لو اني ذهبت معه في رحلته نوزع الاكياس معا لارضاك هذا ... ليس لابن العمال الا (الشنكل) ، وليس لابن الفلاح الا صندوق (البوبا) ، أليست هذه شرعتك ؟..

صدر حديثا

دراسات في الأدب الجزائري الحديث

تأليف

الدكتور أبو القاسم سعد الله

منشورات دار الاداب

الثن ٢٥٠ ق. ل